دراسة النـزعة العقلانية والوطنية في منظومة بن باديس الإصلاحية 1912- 1940

أ.أحمد مريوش

المدرسة العليا في الأداب
والعلوم الانسانية - بوزريعة

اعتقد الاستعمار الفرنسي أنه مكن لنفسه البقاء الدائم بعد صدوره للمرسوم الملكي المؤرخ من 22 جويلية 1834، والذي تضمن إلحاق الجزائر بفرنسا، وقد تبع ذلك جملة من الإجراءات التعسفية في حق الجزائريين لإنجاح مشروع الاحتواء و الإندماج وبذلك ظلت الجزائر فترة ليست بالقصيرة تحت النظام العسكري الذي تحول مع بداية السبعينات من القرن 19 إلى حكم مدني في مناطق الشمال دون غيرها من المناطق الأخرى وجاء ذلك لإرضاء المعمرين دون سواهم، وبالخصوص بعد إخماد نار المقاومة الشعبية.

وقد ظلت الحالة العامة للجزائريين على ما هي عليه من سياسة الظلم والغطرسة حتى عشية إنهاء الحرب العالمية الأولى، وبروز معالم جديدة في الحياة الفكرية والنهضوية وحتى السياسية عبرت عن مرحلة جديدة من تاريخ الجزائر المعاصر. وعرفت المرحلة تخلي الجزائريين التدريجي عن العمل التصادمي والعشوائي أحيانا في تعاملهم مع الفرنسيين، وتبني خطة جديدة تعتمد أساسا على العقلنة، والبحث على سبل موضوعية في مقاومة الاحتلال.[1]

لذلك فلا غرابة أن يشهد بداية القرن العشرين بروز حركة الشباب الجزائري الذي أسعفته الظروف للنهل من منابع العلم، وعبر بوسائله الخاصة عن جملة من المطالب رآها وقتئذ ضرورية خصوصا بعد صدور فرنسا لقانون التجنيد الإجباري سنة 1912 والذي لم يكن عادلا

في محتواه بين الشباب الجزائري والفرنسي. وقد عمقت حركة الشباب الجزائري منذ ميلاد لجنة الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين 1908[2]، عن المطالب الجزائرية التي وسعت من مرجعية التغيير والتي تجسدت فيما بعد بميلاد التشكيلات السياسية المختلفة التوجهات منذ الإعلان عن تأسيس نجم شمال إفريقيا بباريس سنة 1926.[3]

ولعل من بين هؤلاء الشبان الذين أسهموا في خدمة قضايا الجزائر، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الشاب عبد الحميد بن باديس (1889- 1940) وهو من مواليد 5 ديسمبر 1889 بقسنطينة من أسرة عريقة في تاريخ الجزائر، تنتمي إلى المعز بن باديس الصنهاجي، وكانت عائلة بن باديس تحتل مكانة مرموقة في المجتمع القسنطيني منذ عهد أبو العباس حميدة بن بادريس الذي يعد من أشهر قضاة قسنطينة. حفظ عبد الحميد القرآن الكريم على يد الشيخ محمد بن المداسي ومبادئ العلوم على يد الشيخ الونيسي بجامع محمد النجار.[4]

وفي سنة 1908 سافر بن باديس إلى جامع الزيتونة للنهل من علومها على غرار مجموعة من أترابه الطلبة الذين هاجروا للبحث عن طلب العلم وخصوصا من منطقة الزاب وغرادية وما جاورهما. وكانت تونس وقتها تعج بالعلم والعلماء، وسادها جو ثقافي وسياسي وأدبي افتقرت إليه بلدان المغرب العربي الأخرى.[5]

ووسط هذه الأجواء المفعمة بمقومات النهضة عاش بن باديس جزء من حياته ودرس على شيوخ منهم: محمد النخلي، والطاهر بن عاشور، وبعد أن تحصل على الإجازة عاد إلى الوطن سنة 1912، ثم سافر إلى الحجاز والتقى مجددا بشيخه الونيسي، وبعض الوجوه الجزائرية المهاجرة أمثال البشير الإبراهيمي، وحسب رواية هذا الأخير، فإن لقاء بن باديس كان مثمرا وتمحور حول التفكير في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.[6] ولو أن الإبراهيمي لم يشر في مقاله إلى الأشخاص الذين إلتقى بهم بن باديس.[7]

وكانت عودة بن باديس إلى الجزائر فاتحة لعهد جديد في حياة النهضة الجزائرية التي أقبرها الاستعمار منذ دخوله للجزائر، وأخذ عبد الحميد على عاتقه بداية لحركة تجديدية كان أساسها التربية والتعليم وربط في مسجد سيدي قموش ثم في الجامع الأخضر لتعليم الكبار والصغار، ويعد من المؤسسين للحركة الصحفية بقسنطينة، وساهم في إخراج جريدة النجاح إلى النور ثم تخلى عنها حسب رواية حمزة بوكوشة، كما أسس جريدة المنتقد سنة 1925 ثم الشهاب وانتخب رئيسا لجمعية العلماء في غيابه.[8]

والظاهر أن مرحلة التكوين التي تلقاها بن باديس في الزيتونة، لم تكن كافية بالنسبة إليه لما كان يفكر فيه حول قضايا الجزائر، ومن ثم فإن رحلته إلى البقاع المقدسة كانت تتمة لتكوينه الذي سوف

ينصب في جزائر بعيدة المدى، وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم إذ كان المشرق العربي يعج برواد التجديد وخدمة القضية العربية ونبذ الاستعمار.[9]

وهكذا فقد أرسى بن باديس مدرسة التغيير في الجزائر، وفكر مليا في ضرورة مخاطبة العقل الجزائري، بعد أن تشبع بحركة الإحياء الإسلامية التي شهدها العالم الإسلامي والتي وقف عندها من خلال ترحاله.[10] وجسدها في عمله الإصلاحي منذ 1912، وحسب دراسة المستشرق الفرنسي ديبارسي، فإن بن باديس غرس نواة الحركة الإصلاحية التجديدية منذ بدأ نشاطه بالجامع الأخضر إذ نشر مبادئه التربوية وعلم اللغة العربية والدين الإسلامي، وكانت دروسه في حقيقة الأمر موجهة نحو هدف سياسي عاشه في تونس أثناء أحداث مقبرة الجلاز بزعامة باش حمية والجزائري القلاتي، وكل ذلك ساعد على نمو الوعي الوطني المشترك لشعوب المغرب العربي.[11]

وقد وجد بن باديس نفسه وجها لوجه أمام سياسة التغريب الاستعمارية التي إستهدفت القضاء على مقومات الشخصية الوطنية من خلال صدور العديد من القوانين والمراسيم المحجفة في حق الجزائريين بغرض إبعادهم عن هويتهم العربية والإسلامية، بل فتحت مدارسها لقلة من الجزائريين بغية تكوينهم تكوينا خاصا وفق المنظومة التي أرسى

معالمها جول فيري وكومب وغيرهما من رواد الاستيطان الثقافي والفكري في المستعمرات.[12]

وقد ضيقت الإدارة الفرنسية الخناق على المدارس القرآنية والعربية حتى تجعل من اللغة الفرنسية مع مرور الزمن لغة التعليم والتكوين والتخاطب، بعد أن جعلت منها لغة الإدارة والتعامل، بل تصبح أيضا لغة الآباء والأمهات، ولسان الأبناء منذ تعلمهم النطق, وبالتالي يتم تعميم استعمال اللغة الفرنسية، وتغذو لغة الحياة اليومية للجزائريين، بعد أن يقننها الإطار السياسي الذي تفرضه السلطة الاستعمارية على الجزائر، ويؤول المحتوى الفكري والإجماعي للجزائريين إلى مرحلة قابلة للتفكك والصياغة والتشكيل وفق النموذج الفرنسي.

وبالفعل فقد أوجدت سياسة التعليم الفرنسية جيلا جزائريا له طابع فرنسي, في اللغة والثقافة ويتجه نحو الغرب، ويركز على الإقليمية والفينيقية والمتوسطية، حتى ظن هؤلاء أنهم مغاربة ولكنهم فرنسيو الفكر غريبو الثقافة، وصبوا جهودهم لتخفيف روح الخصومة للفرنسيين، وأن احتلال فرنسا ضرورة لا غنى عنها لضعف البلاد عن حماية نفسها، ومن تم فقد أدار هذا الجيل ظهره للعربية وللإسلام والوطن.[13]

ومما لا شك فيه أن بن باديس قد تدارك الوضع، وتفطن للطرح الاندماجي الفرنسي، وعارضه منذ الوهلة الأولى في بداية عمله الإصلاحي، بل وظف وسائله لإبطاله، عن طريق تكوين الناشئة تكوينا مغايرا للتكوين الفرنسي، وكشف ابن باديس عن الأخطار المحدقة ضد الجزائريين في المناسبات العديدة، ونلخص ذلك في خطابه أمام إدارة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة بقوله: "كان أبناؤنا من قبل يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خروجوا جاهلين لدينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها...".(14)

وإذا كانت مدرسة الإصلاح التي تزعمها بن باديس قد جابهت سياسة التغريب، التي رسمتها الإدارة الفرنسية، فإنها لم تسلم أيضا من تحالف الاتجاه الطرقي الذي مد يده إلى الإدارة الاستعمارية ليتدعم أكثر ضد العلماء، ومن ثم فقد اعتبر رجال الإصلاح خطر هذه الجماعة المتبدعة الضالة أخطر بكثير على الجزائريين من الاستعمار نفسه لأنها صرفت المسلمين الجزائريين عن مشاعرهم الدينية الحقة، ووجهتها في متاهات الأذكار والمقامات وغرس ثقافة الانهزام، حتى تسود فكرة الاستعمار من قضاء الله الذي لا يجوز الاعتراض عليه، وحتى تطور تعاليم الدين الإسلامي، وتمسخ معانيه لحماية الباطل والحفاظ على بقاء الاستعمار إلى الأبد، مثل: لا يقع في ملكه إلا ما

يريد، أقام العباد فيما أراد، كن عبد الله المغلوب ولا تكن عبد الله الغالب، وغيرها من التفاسير التي فسرت تفسيرا خضوعيا، ولم يكن شرحها كما جاءت به الشريعة المحمدية ولا السلف الصالح.[15]

ومع أواخر القرن 19 وبداية القرن العشرين أصبحت حالة المجتمع الجزائري أشبه ما يكون بالعصر الجاهلي، وهذا حسب تعبير البشير الإبراهيمي نفسه، بعد انتشار ظاهرة الدروشة والانحلال الخلقي وتجسدت الرجولة في شارب الخمر والمدمن على الحشيش والمتردد على بيوت العاهرات، وظهرت طائفة المرتزقة حول الأضرحة وهم يروجون للباطل بعد أن أسسوا المذهب القبوري.[16] وأصبح خيار جديد في مناسك العبادات بعد أن أخذت هذه الجماعة بشعار "اعتقد و لا تنتقد" ورجحوا مبدأ القدرية وحاربوا أهل العقل.

وقد وصف الطيب العقبي هذه الجماعة في قصيدة هامة جاء في بعض أبياتها:

وشيخهم الأتقى الولي بزعمه — إذا ما رأى مالا أمال له عنقا
وذلك أقصى سؤله ومرامه — متى ناله أولاه من كيسه شقا
أولئك عباد الدراهم ويلهم — سيمحقهم ربي وأموالهم محقا
متى ألقاهم أبصر شياطين فتنة — ويا ليت أني لا أراهم ولا ألقى
وقد أولعوا بالفسق سرا وجهرة — فحيث تراهم تبصر الخبث والفسقا.[17]

والظاهر أن صدى الحركة الباديسية قد عجل التقارب أكثر بين الإدارة الفرنسية ودعاة البدع، وفتحت فرنسا ذراعيها أمام استمالة هذه الجماعة وتوظيفها ضد مدرسة الإصلاح. ولعل ذلك ما أشارت إليه جريدة " لوبوتي بارزيان" (le petit parisien) بقولها:" إن الطرق الصوفية تملك السلطة الروحية التي يمكن أن تكون مفيدة أو ضارة لفرنسا تبعا لطريقة استخدامها ولكن الطرقيين كانوا حتى الآن من أحسن معاونينا...".[18]

وبالفعل فقد استطاعت الإدارة الاستعمارية أن تكون جبهة دفاعية جديدة، متلبسة بالدين لمحاربة دعاة التجديد، ومن ثم تشجيع التآكل الداخلي بين الجزائريين أنفسهم، وكانت فرنسا دوما تقدم التشجيعات المادية والمعنوية للطرقيين، وقد أشار إلى ذلك التقرير الفرنسي الصادر عن الأمن الولائي لعمالة قسنطينة بتاريخ 14 ماي 1937، والذي كشف عن تحالف رجال الطرق والزوايا ضد جمعيية العلماء المسلمين الجزائريين، بعدما تمكنت جمعية رؤساء الطرق والزوايا بعمالة الجزائر العاصمة من توسيع خلاياها في مناطق عديدة من الوسط، وامتدت إلى عمالة الغرب وهران، والتي حضر بعض أنشطتها وجلساتها بعض رجال الطرق من قسنطينة بغرض تنسيق الجهود، والبحث عن الدعم الفرنسي لمجابهة نشاطات جمعية العلماء.[19]

ومما سبق ذكره نخلص إلى القول إن اهتمامات بن باديس وصحبه قد جاءت في وقتها، واستطاعت أن تتكيف مع عامل الزمن لإحباط مشروع

التغريب من جهة، ومحاربة المذهب الطـــرقي والقبـــوري [20]، من جهة ثانية، وقد إختار بن باديس وسيلة التعليم والتربية وتكوين الناشئة كمحطة أولى في مشروع إصلاحه، وكان يقول لطلابه:" إن الشعب المتعلم لا يستعمر" حسب ما روى لي ذلك أحمد حماني رحمه الله.[21]

وقد فكر بن باديس جليا في الكيفية التي تأهل الجزائريين لرفض الاستعمار. وخاطب بذلك الفكر أولا، وسعى إلى ترشيده وتوجيهه التوجه الصحيح، ومن ذلك فإن رحلة الرجل في ميدان مسيرة العمل الإصلاحي لا تستوفيها هذه الوقفة، بل تحتاج إلى دراسات أكثر تعمقا، بل ونزاهة لأن فكر بن باديس لا يزال في أمس الحاجة إلى التبسيط والتوضيح والفهم.

ويمكن أن نقسم الحركة الباديسية إلى ثلاثة مراحل هامة، أولها مرحلة توعية وترشيد الأمة وبناء الناشئة الجزائرية، وثانيها الانتقال إلى مرحلة التوحيد ولم الشمل وتقريب المفاهيم والطروحات التي كانت شبه غائبة خلال القرن 19، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي الوصول بالجزائريين إلى مقارعة الاستعمار ونبذ الظلم والعصيان المدني الذي يؤول حتما إلى القطيعة مثلما أشار إلى ذلك بن باديس بعد عودة الوفادة من باريس بعد أن قدمت لفرنسا مطالب المؤتمر الإسلامي 1936.

وكانت دعوة بن باديس التجديدية مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والسلف الصالح، وقد أوضح ابن باريس عن مبادئ

دعوته منذ العهود الأولى لبداية نشاطه الإصلاحي بالجامع الأخضر بقسنطينة إثر صلاة الجمعة.[22] وكان في العديد من المرات يعرج على ذكر وشرح المبادئ التي ارتكزت عليها دعوته الإصلاحية وقد أشار إلى ذلك في إحدى خطبه بقوله:"ما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين والدنيا بفقه القرآن، وعرفوا السنن الأقوام بمعرفة سنة محمد عليه الصلاة والسلام، فهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الإسلام العظام...".[23]

ومعنى ذلك أن بن باديس كان يتصور أن المؤمن الكامل إنما هو ذلك الذي سلمت نظرته وصح إدراكه وجعل من القرآن منهجه، و اعتمدبن باديس على العقل والفطرة كمعيارين من معايير الحياة الإنسانية في الاعتقاد والسلوك بجانب القرآن بل يرى أن منهج القرآن نفسه في توجهه إلى بني الإنسان إنما يعتمد على الفطرة وعلى العقل البريئين من الهوى والأوهام والانحراف والطمس، ويذهب بن باديس إلى أن الإسلام يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير و يمتاز الإنسان فيما يذهب إليه بقوة التحليل والتركيب، لما يصل إليه من مدركات حسية أو عقلية، وإلى السيطرة على الطبيعة بهذه الميزة ميزة التحليل والتركيب والتطبيق...".[24]

ولكن بن باديس يكرم العقل ويغسله من الأوهام والخرافات التي ألصقت به خلال فترة الاحتلال، بتواطئ مجموعة من المضللين والمبتدعين، وكان سلاح التنوير والتوعية والترشيد والتخاطب من الوسائل الكفيلة

والفاعلة التي اعتبرها بن باديس جد ضرورية لمرحلة ما قبل الوحدة المنشودة التي كان يتوخاها، لأن الاختلاف في العقائد وخصوصا الفاسدة منها قد يسبب الشرخ الكبير في بنية وحدة الأمة.

وبقدر ما كانت السياسة الباديسية تخاطب الكبار من الجزائريين، فإنها تركزت بصفة أخص على الناشئة التي لم تنتسب بعد إلى دعاة الردة، ولم تكتسب فكر السذاجة والخرافات، ومن ثم أراد بن باديس شحن وتعبئة جيل الثلاثينيات بمقومات وأفكار وطنية [25] من خلال وسيلة التربية والتعليم وعلق عليهم أمالا عريضة بقوله:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

وقد وسع بن باديس من دائرة التعليم مع بداية الثلاثينيات، وخصوصا بعد ميلاد جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة[26] التي رصدت جل إهتماماتها للنشاط التعليمي.

كما تعد الجمعية حلقة جديدة في تاريخ الجزائر الثقافي، إذ تمكنت من تثمين جهود رجال الإصلاح والمحسنين في توسيع دائرة التمدرس وتحديث المنظومة التعليمة التي انتقلت من المرحلة التقليدية إلى المرحلة الحديثة، وأصبح التعليم وظيفيا راهن عليه أصحابه بغرض تكوين جيل جديد، ومن ثم صح القول أن حركة بن باديس التعليمية تعد ثورة ثقافية مهدت لبداية العمل السياسي المنظم، وقد أشار بن باديس إلى ذلك في جريدة السنة النبوية[27]

بقوله:" وعزمنا على القيام بالتدريس أدخلنا في برامج دروسنا تعليم اللغة العربية وآدابها، والتفسير والحديث والأصول ومبادئ التاريخ والجغرافية ومبادئ الحساب وغير هذا ... ورأينا لزوم تقسيم المتعلمين إلى طبقات، واخترنا للطبقة الصغرى منهم بعض الكتب الابتدائية التي وضعتها وزارة المعارف المصرية، وأحدثنا تغييرا في أساليب التعليم، وأخذنا نحث على تعليم جميع العلوم باللسانين العربي والفرنسي، ونعين الناس في فهم القرآن، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية، وترغيبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين. لقد مضينا على رسمنا وصمدنا إلى ما قصدنا من غاية. وقضينا عشر سنوات في الدرس لتكوين نشئ علمي لم نخلط به من كل آخر...".[28]

مما سبق نجد دعوة بن باديس لم تكن سلفية مستوحاة من كتب الأقدمين بل كانت دعوته عصرية أيضا اعتمدت على كتب المعاصرين. ينبغي ذكر أن بن باديس ربط في فكره بين الأصالة والمعاصرة وتماشى مع الحداثة النابعة من التراكم الحضاري الإسلامي، و كان دوما يوصي طلبته بقوله: فالتفكير التفكير يا طلبة العلم، فإن القرآن بلا تفكير لا يوصل إلى شيء من العلم، وإنما يربط صاحبه بصخرة الجمود والتقليد.[29]

وقد لا نبالغ إذا قلنا أن بن باديس نظر إلى الأشياء من منظار شمولي، ولو أنه أخذ بالأولويات في برنامج إصلاحه، ولم يَكْتَفِ في منهاجه بالتركيز على تدريس العلوم الشرعية، بل تعداها إلى إدخال العلوم الحديثة والاهتمام

بعلوم الاجتماع، وكان يدرس في دروسه مقدمة بن خلدون لما تكتسيه من منفعة عظيمة حول قضايا الاجتماع والفكر والحضارات. ولذلك فإن حركية الإصلاح الباديسية خدمت الذاتية الجزائرية وفق أسس البنية اللغوية الدينية والتاريخية ولذلك فلا غرابة أن نجد مدرسة استشراق الفرنسية تركز في اهتماماتها و دراستها على النقلة النوعية التي استخدمها حركة ابن باديس والجمعية عموما وسلطت عليها الأضواء الكاشفة، وكتب في ذلك الصدد الفرنسي بوفراي يقول:" أن حياة وثقافة بن باديس لم تكن مقتصرة على الإصلاح الديني وفق التعاليم الإسلامية بقدر ما قدم الرجل أيضا أشواطا هامة في الحياة السياسية للجزائريين" وقد عبر عنها الكاتب بالوطنية الإسلامية.(30)

وقد اكْتَسَبَت حركة بن باديس رؤية جديدة لدى الكثير من جيل بداية القرن العشرين "جيل الإصلاح" اتضحت فيما بعد برفض الولاء للاستعمار، بعد نمو الشعور الوطني الذي ارتبط بعنصر الوطن وملكية الأرض والرقعة الجغرافية، لأن حركة بن باديس وجدت في مرحلتها الأولى الأمة الجزائرية أشبه ما تكون بالأمة الميتة برغم أن هناك من الجزائريين من سبقه للعمل الإصلاحي لكنه ظل سطحيا ولم يرقى إلى عمق المجتمع الجزائري.(31)

وكان ابن باديس يراهن في إصلاحه على تجسيد الوحدة الوطنية المؤسسة على المقومات المشتركة من اللغة العربية والدين الإسلامي والتاريخ

المشترك والمصير الواحد وقد أدرج هذه المقومات في عمله الميداني سواء التعليمي أو الخطابي أو الكتابي، ولذلك فلا غرابة أن نجده يبدي تفاؤله في مستقبل الجزائر، وقد أشار إلى ذلك سنة 1939 بقوله: "واليوم الحمد لله أصبحتم مجتمعون في داركم، ولقد كنتم ضعافا فقواكم الله وعززكم ورفع شأنكم، علينا أن نعرف تاريخنا، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا الحبل المتين: اللغة العربية لغة الدين لغة الجنس لغة الوطنية المغروسة، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد، وما في العقل من أفكار، وأن الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعب حي لن يموت..."[32].

وهكذا ربط بن باديس بين عنصر اللغة والدين والتاريخ، وخلص في كلامه إلى وجود الوطنية في نفوس الجزائريين وأنه شعب حي لن يموت أمام غطرسة الاستعمار، واعتبر بن باديس عنصر اللغة مقوما هاما باعتبارها لغة التخاطب المشتركة بين جميع الجزائريين كما أنها لغة القرآن المجيد. ومن ذلك فقد عمل بن باديس على إنماء القواسم المشتركة في الشخصية الجزائرية، بل مكن من روح الإستماتة والمقاومة السلمية والتحدي في نفوس الجزائريين، وأعلن عن ذلك صراحة خلال افتتاحه لدار الحديث بتلمسان سنة 1937 أمام جمع غفير من رجال الإصلاح بقوله:" فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن" [33] ويقصد به الجزائر.

وإذا كانت نظرة بن باديس تعد نظرة مستقبلية للأمة الجزائرية،

فإنها لم تعتمد على مبدأ التوفيقية تجاه كل مكروم، بل اعتمدت سياسة اللاعنف والمرحلية في أسلوب التعامل مع الأحداث بغرض التمكين والحصول عن النتائج في ظل السياسة الاستعمارية الرافضة لكل ما هو وطني. وإذا كان منهاج بن باديس قد وجد من يناصره، فإنه قد وجد من يعارضه من الجزائريين وخصوصا من النجمين.[34]

وكان بن باديس يشجع دوما كل عمل يخدم الصالح الوطني، وساهم بالقسط الوفير في خدمة الحركة الكشفية الإسلامية.[35] و تدعيم الجمعيات الخيرية، وما ذلك إلاّ حرصه الشخصي على تفضيل الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست بالجزائر العاصمة.[36] وكان بن باديس يتابع اجتماعات الخيرية السنوية ويحضر جلساتها. ففي 2 أفريل سنة 1934 حضر بن باديس اجتماع الخيرية الإسلامية السنوي، وألقى محاضرة تطرق فيها إلى روح الإحسان في الأمة الجزائرية ووصف ذلك اليوم باليوم الأغر في عاصمة الجزائر، ومما جاء في مداخلته قوله: ذلك هو يوم الجمعية الخيرية المشهود، فلم يكن اجتماع اليوم الثاني من أفريل نصرا مبينا للجمعية الخيرية الإسلامية وحدها، وما كان نصرا مبينا لفكرة الإحسان فقط، بل كان نصرا عظيما لليقظة الإسلامية الجسيمة التي تجلت بأسمى مظاهرها، وأعظم معانيها في ذلك اليوم المشهود...".[37]

وكانت الخيرية تعرض خلال مؤتمرها السنوي ما توصلت إليه خلال سنة كاملة من أنشطتها المتنوعة، وخصوصا التعليمية والنسوية منها،

وعرفت بجل أعمالها مثل الخياطة، و الطرز والحياكة وأشغال البيوت ونحوها، وكان بن باديس يقف عند هذه النتائج والمعروضات ويبديها بالتشجيع الكامل لأنها ساعدت على تربية المرأة مهنيا و اجتماعيا.

وكانت لإبن باديس نظرة خاصة للمرأة الجزائرية التي أعدها حلقة هامة في الاستمرار والتواصل، وأنها نصف المجتمع ولابد من إدراجها في حلقة الإصلاح، وقد أكد ذلك في العديد من المناسبات ومنها قوله: "خلقت لحفظ النسل، وتربية الإنسان في أضعف أطواره، فهي ربة البيت و راعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به، فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، وتربيها على الأخلاق النسوية التي تكون بها المرأة إمرأة لا نصف رجل ونصف إمرأة، فالتي تعد لنا رجلا يطير خير من التي تطير بنفسها".(38)

وقد رسم بن باديس المعالم الكفيلة التي تتحصن بها المرأة الجزائرية، وحددها في التربية الإسلامية والمقومات الوطنية، وقد أشار إلى ذلك بقوله: " فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة، ونعرفها عن طريق الدين مالها وما عليها". وقد حث ابن باديس على ضرورة غرس القيم الأخلاقية والوطنية في نفسية المرأة الجزائرية حتى تساهم هي الأخرى في إذكاء ذلك الحس الوطني في نفسية الناشئة و قال في ذلك الصدد: "و نفقها في دينها ولغتها، وقوميتها، فعلينا أن نعرفها حقائق ذلك لتلد أولادا منا و لنا يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الأتية، ولا ينكرون أصلهم, وإن أنكرهم

العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون".[39]

وقد تخوف بن باديس من تأثير المرأة المغربة على الناشئة، ورأى ذلك خطرا على مستقبل الأمة الجزائرية، ولذلك فقد فضل المرأة الجاهلة العالمة بأصلها على المرأة العالمة الرافضة لكيانها وقال في ذلك الشأن: "فالجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا - عليهن الرحمة - خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها تعلم كل واحد لأهله بما عنده من علم ويوم نسلك هذا الطريق في تعليم المرأة قد نهضنا بها نهضة صحيحة نرجو من ورائها كل خير وكمال.[40]

كما رفض بن باديس طروحات الزواج بالفرنسيات، واعتبر ذلك مروقا عن الشريعة الإسلامية، وحارب ذلك لقطع الطريق أمام دعاة الإندماج والإختلاط في النسل بالأجنبيات وبالخصوص الفرنسيات، فالمرأة الفرنسية عرفت بغيرتها على وطنها، ومن ثم فإنها تجر زوجها الجزائري لخدمة القضية الفرنسية و قد قيل قديما الرجال صناديق مغلقة مفاتيحها عند النساء.

واعتبر بن باديس الخلط في النسل لا يخدم الوطن الجزائري، فإن الجيل الناتج لا يعبر عن حقيقة الكيان الجزائري[41]، وكانت دعوة بن باديس تندرج في إطار صيانة كرامة المرأة الجزائرية، ولذلك أفتى فتوة في التزوج بالفرنسيات، جاء فيها:"ومن تزوج إمرأة من جنسية غير إسلامية فقد ورط نسله في الخروج من حظيرة الشريعة الإسلامية، فإن كان راضيا لهم

ذلك ومختارا له على بقائهم في حظيرة الشريعة الإسلامية، فهو مرتد عن الإسلام، جان عليم، ظالم لهم وإن كان غير راض لهم بذلك ولا مختارا لهم ذلك على شريعة الإسلام، وإنما غلبته شهوته على ذلك الزواج، فهو آثم بجناتيه عليهم وظلمه لهم، لا يخلصه من إثمه العظيم إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه بهجرته لهم...".[42]

وهناك قضية أخرى لا تقل أهمية عن القضايا التي عالجها بن باديس في منظومتة الإصلاحية، وهي قضية الاقتصاد، واعتبر الرجل أن النهضة الجزائرية لا تكتمل إلا بإعتماد جوانبها المختلفة المادية و المعنوية، ودعا بن باديس إلى ضرورة إدماج الجزائريين في الهياكل الإنتاجية وإكتسابهم للحرف والمعارف والخبرات المهنية ويعد كل ذلك مساهمة فعالة في التكوين الحقيقي للجيل الجديد من الجزائريين الذي سوف يصطدم لا محال مع الإستعمار ويصل إلى الإعتماد على النفس، أي إعداد إطارات الجزائر ما بعد الإستعمار.[43]

وقد أشار بن باديس إلى ضرورة الإهتمام بتمهين الأيدي العاملة التي بادرت جمعية التربية والتعليم بقسنطينة للتكفل بها، وقيّم بن باديس عمل الجمعية بقوله:"إن فيها اليوم لمصنعا للنسيج، وقانون هذه الجمعية ينص عليه وينص على تعليم العربية والفرنسية. وللجمعية نيات أخرى تنوي أن تقوم بها في المستقبل إن شاء الله، تنوي أن تبعث البعثات العلمية إلى الخارج وتسعى جهدها في تحقيق ما ينص عليه قانونها الأساسي من تأسيس المصانع والملاجئ

والمحلات العامة".[44]

ومن هنا نجد أن فلسفة بن باديس الإصلاحية جمعت في طياتها هموم وقضايا الجزائريين، ولم تستثني الجوانب المادية والإقتصادية من عملها، مثلما جسدته التيارات السياسية فيما بعد في برامجها. والظاهر أن وفاة بن باديس في وقت مبكر لم يسمح لبروز المشاريع الإقتصادية التي ظهر بعضها للوجود فيما بعد.[45]

وقد انتقد بن باديس دعاة التجنس و الإندماج والمغرمين بالمدنية الغربية وشن هجوما على هذه الفئة المرتدة من الجزائريين الذين استمالهم الإستعمار الفرنسي، بل كونهم في مدرسة جول فيري الإندماجية، واعتبر بن باديس التجنس والتفرنس ردة على الشريعة الإسلامية وأصدر فتوى جاء في بعضها: "التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية ومن رفض حكما واحدا من أحكام الإسلام عد مرتدا عن الإسلام بالإجماع، فالتجنس مرتد بالإجماع، والمتجنس - بحكم القانون الفرنسي - يجري تجنسه على نسله فيكون قد جنى عليهم بإخراجهم من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجا عن شريعة الإسلام بسبب جنايته...".[46]

وبرغم علاقة بن باديس المعتدلة مع تيارات الحركة السياسية ما بين 1927- 1940، إلا أنه أوضح في الكثير من المرات ردود أفعاله تجاه دعاة

التغريب والإلحاق الذين كانوا يفسرون الحضارة الغربية على أنها بوابة التقدم وهي السبيل الأوحد لإخراج الجزائر من أوضاعها المزرية، وقد رد على هذا الرعيل بقوله: " رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة على الأرض - وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها فالقوى عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان - فقالوا إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض وزعموا أن المراد بالصالحين في الآية الصالحون لعمارة الأرض فيالله وللإنسان من هذا التحريف السخيف. كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد وفسدت الأخلاق و إعوجت الأعمال وساءت الأحوال وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة ووعدت بالفتن والحروب المخربة الجارفة وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكوا منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان..."[47].

وكان رد بن باديس واضحا على كتابات وتصريحات النخبة المغربة، وخصوصا بعد الكتابات التي بادر بها فرحات عباس في جريدة الوفاق تحت عنوان " فرنسا هي أنا" ومما جاء فيها: " الوطنية هي ذلك الإحساس الذي يدفع بشعب أن يعيش داخل حدوده الإقليمية، إحساس خلق هذه الشبكة من الأمم. لوكنت إكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنيا، ولن أخجل من ذلك كما يخجل من جريمة فالرجال الذين ماتوا من أجل المثل الوطني هم يوميا مكرمون ومحترمون، وحياتي ليست أهم من حياتهم ومع ذلك سوف لا أموت من أجل الوطن الجزائري لأن هذا الوطن غير موجود ولم أكتشفه: سألت

التاريخ وسألت الأحياء والأموات وزرت المقابر ولم يكلمني أحدا عنه..."[48].

وإذا كان عباس لم يجد الوطن الجزائري، فإن بن باديس عرفه منذ طفولته ولذلك رد على سياسة النفي والتغريب بقوله: " إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا, ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت, لأنها أمة بعيدة كل البعد عن فرنسا في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري." [49]

وهكذا نجد بن باديس يدخل المرحلة الثانية من إصلاحه، ويدعو إلى ضرورة الوحدة الوطنية وتجسيدها في الواقع الجزائري بعدما وفر لها المقومات خلال العشرية الأولى من بَدْءِ إصلاحه، وتعد الوحدة الفكرية واللغوية والدينية محطات ضرورية لتحقيق الوحدة الوطنية في منظور بن باديس، وقد عبر عن ذلك التصور والطموح بقوله: "ولأننا جزائريون نعمل للم شعب الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائها وترغيبهم في العلم النافع والعلم المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والإنتفاع في العالم وعليها واجب الخدمة والنفع للإنسانية..."[50].

كما أوضح بن باديس حقيقة الكيان الجزائري الذي يمتاز بجميع المقومات التي يمتاز بها غيره في المجتمعات الأخرى، وقطع الطريق أمام التغريبيين، وخطب سنة 1937 بقوله: "وبعد فنحن الأمة الجزائرية لنا جميع

المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية، وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية... وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلا عن إدماجنا أو محونا".(51)

وقد عبر بن باديس في العديد من المرات عن إرتباطه الوحيد بالوطن الجزائري وكتب مقالا قيما في مجلة الشهاب بعنوان: لمن أعيش وشرحه شرحا شافيا لخصه في جملة لها من الدلالة النافعة وهي: أعيش للإسلام والجزائر إلى أن يقول:" أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص وتفرض علي تلك الروابط لأجله فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة...".(52)

ومن دون شك فإن الوطن الذي أحبه بن باديس، هو وطن كل الجزائريين، هو الوطن الذي جمع الأعراف والأقوام بعد أن صهرهم التاريخ وهذبهم الإسلام، فالوطن الذي باركه بن باديس هو الوطن الواحد للأمازيغ والعرب والمولدين و الكراغلة وهو وطن الديانة الإسلامية السمحة. وبرغم ذلك فقد عالج بن باديس موضوع الأمازيغ وكتب مقالات عديدة و منها مقاله المعنون بـ:"ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان" ومما جاء فيه: "أن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر

وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم في أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات إتحادهم على صفحات هذه القرون بها أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله وما أسالوا من محابر في مجالس الدرس لخدمة العلم. فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم..."[53].

والحق أن بن باديس يعد من رواد الوحدة الوطنية بكل أبعادها، فإذا كان جريئا في معالجته للقضية الأمازيغية، فإنه كان جريئا في مواقفه من بعض القضايا التي أثيرت مع بداية الثلاثينيات كالتي وقعت بين الإخوة الإباضيين و المالكيين حول الآذان في منطقة غرداية، وقد لام كل طرف مدرسة الإصلاح وبالخصوص تيارات الشهاب التي كتبت حول القضية، وقد خرج بن باديس عن صمته ونشر موقفه في الشهاب بعد أن أوضح من خلاله أنه فتح الموضوع مع أخيه إبراهيم طفيش، كما أنه استلم كتاب الإخوة المالكية بالعاصمة، وقد استطاع بن باديس أن يقرب بين وجهات النظر بين الإخوة وقد أشار إلى ذلك بقوله: " فنحن بهذا قد برأنا الإباضية من تعصبهم على المالكية لأنهم مالكية، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه حق عليهم أن يرجعوا عن رأيهم في هذه المسألة، ويسمحوا لإخوانهم المالكية بالآذان.

أولا: إصلاحا لذات النية بين المسلمين وهي في الإسلام من أول ما تجب وتتأكد المحافظة عليه والقيام به.

ثانيا: حفظا للوحدة الإسلامية بحفظ القلوب غير متصدعة بداء الفرقة.

ثالثا: مجاملة لبقية إخوانهم المالكية بالقطر الذين تربطهم بهم رابطة الدين والوطن والمصلحة. هذه كلمتنا نقولها بعهد الله، لا نقصد بها إلا القيام بواجب الصدع بالحق والدعوة إليه والإصلاح بين المسلمين..."[54].

أما المرحلة الثالثة التي راهن عليها بن باديس لإنجاح مشروعه الإصلاحي في الجزائر فتتمثل في مقارعة الإستعمار، فإذا كانت سياسة الرجل قد اعتمدت على التعايش والمرونة لكسب الوقت، دارسا أسس الحركة الإصلاحية فإنه غير من منهجيته فيما بعد. وكان بن باديس كغيره من رجال النخبة يسعى دوما إلى توفير الأجواء السانحة لبناء العقلية الوطنية[55]، وقد أفصح عن ذلك من خلال إفتتاحية جريدة الشهاب التي قيم أعمالها السنوية بعنوان في بحر عام أعمالنا وآمالنا بقوله: "تأسست هذه الصحيفة على أن تخدم الأمة الجزائرية بمساعدة فرنسا الديمقراطية، فكانت في جميع مواقفها ترمي بنفسها في سبيل الأمة...كانت في جميع مواقفها متشبثة بالجمهورية الفرنسوية مستصرخة عدلها و إنسانيتها مستعينة بها على مبدأ الحرية والأخوة والمساواة، إننا سنثابر على مبدئنا آملين أن نكون من أقوى العاملين على الإتحاد الأخوي الفرنسوي الجزائري المبني على أسس الجمهورية وكلماتها الثلاث الخالدات، وإننا نعلم أننا نجد من الحكومة عن ذلك استحسانا وتأييدا، وإننـا نجد مـــن الجزائريين عليه إلا

معـينا ونصيرا ...".[56]

وإذا كانت لإبن باديس هذه النظرة تجاه فرنسا، فإنه غير منها فيما بعد، وانتهج سياسة لم تكن بعيدة عن الأولى، ولكنها رسمت معالم جديدة بعدما تأكد بن باديس من إنجاح دعوته، وخصوصا بعد إبطال مفعول المؤامرة التي حيكت ضد الجمعية الناتجة عن ميلاد جمعية علماء السنة برئاسة المولود الحافظي[57] الذي يعد من الأوائل الذين دعوا إلى تأسيس الجمعية وخرج عنها في عامها الثاني.

ولعل الشيء الأخر الذي دفع بابن باديس أن يغير من تعامله مع الإدارة الفرنسية صدور قرار ميشال المشؤوم في فبراير 1933 ضده وضد أخيه العقبي لمنعهما من التدريس في المساجد.[58] إضافة إلى تمادي الإدارة الإستعمارية في إجراءاتها التعسفية وصدورها لقرار رسلني سنة 1935 ومواقفها المتخاذلة من مطالب المؤتمر الإسلامي 1936 ومرسوم شوطان ضد التعليم العربي 1938 [59] و نحوه من القرارات التي لم تخدم طموحات رجال الإصلاح ومنهم بن باديس.

وبرغم ذلك فإن بن باديس لم يفقد الأمل تجاه الإدارة الفرنسية، وظل يعتقد أن المطالب الجزائرية سوف يتم الحصول عليها ولو عبر مراحل، لأن الشعب الجزائري قدم للفرنسيين الشيء الكثير خلال أزماتهم، ولم يتحصل على القدر المطلوب، وقد أشار بن باديس إلى ذلك بقوله: "إننا مستعمرة من

مستعمرات الجمهورية الفرنسية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسوية، وتحسين العلائق بين الأمتين المترتبطتين براوبط المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة من الجانبين. إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها ويسرها، ومع الأسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها". ولو أن بن باديس خلص في مقاله إلى جملة هامة ولها مدلول وطني بعيد بقوله:"الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء".(60)

وقد أضحت الوجهة السياسية لإبن باديس واضحة المعالم خلال منتصف الثلاثيات بعد أن مكن برنامجه الثقافي والتربوي، وتبلور مصطلح القطيعة تجاه الإدارة الفرنسية بعدما ارتسمت برامج الأحزاب السياسية الأخرى، وكل ذلك مكن من تعميق الوعي لدى القاعدة العريضة من الجزائريين. لكن دعوة بن باديس إتضحت أكثر مع تطور الأحداث، إذ ربط حب الإنسانية والغير بحبهم للوطن الجزائري، وركز على مرجعية الوطن وذلك بقوله: إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، ونحب من يحبه و نحب من يحبها ويخدمها، ونبغض من يبغضها ويظلمها، و بالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه ونبغض من يبغضه و يظلمه، علينا بذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئ من بنيه وغير بنيه...".(61)

وتعد صائفة 1936 بداية التحول الواضح في حياة بن باديس السياسية، بعد مشاركته في المؤتمر الإسلامي، وذلك لا لشيء سوى للحفاظ على

مقومات الشخصية الجزائرية وأن مشروع فيوليت[62] يجب أن لا يتحول إلى حقيقة تهدر كيان الأمة الجزائرية في أقدس مقوماتها العربية والإسلامية.

وإذا كان أعضاء وفادة المؤتمر قد عبر كل بحسب رؤيته الخاصة التي تمحورت حول المطالب الآتية والمكاسب المحققة، فإن رؤية بن باديس كانت هادئة ولم تعبر على نشوة الانتصار ولا على سخط الانهزام، بل كانت دعوة بن باديس أن المرحلة شاسعة ولا بد من التحضير لها وأشار إلى ذلك بقوله:"أيها الشعب إنك بعملك العظيم برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا لأجلها. إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد..."[63].

ومما لا شك فيه أن بن باديس قد عرف جيدا حقيقة السياسة الإستعمارية ومن ثم جنح كغيره من الوطنيين إلى أسلوب الصراحة أحيانا و القطيعة أحيانا أخرى، وأصبح أسلوب العصيان الجزائري ضد الفرنسية لا مفر منه، وهنا لمح بن باديس للأمة الجزائرية ضرورة التحضير للموعد بعد أن خاب ظنه في الشعار الفرنسي (الإخاء - المساواة - الحرية) وبالتالي إستبدله بشعار آخر"لنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله" والتي عبر عنها بقوله: "أيها الشعب لقد عملت وأنت في أول عملك فاعمل ودم على العمل

وحافظ على النظام، وأعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات وبعدها إما الحياة وإما الممات..."[64].

والشيء الملاحظ أن إحتجاجات بن باديس ضد السياسة الفرنسية قد توسعت أكثر ما بين 1936- 1940، وكان رده صريحا على سياسة الإقصاء الإستعمارية حيال الجزائريين، وخصوصا ضد أعمال الجمعية، وقد عبر بن باديس عن ذلك في أواخر سنة 1936 بنادي الترقي بقوله: لقد لقيت هذه الجمعية من الحكومة العنت والبلاء، ولم تبال في سبيل إرهاق الجمعية بكرامة المسلمين في دينهم وحرمه مساجدهم، فأوصدت المساجد في وجه العلماء، وقامت برفض التعليم العربي والقرآني، وصورت رجال الجمعية بصورة من الأعداء لتبعد عندهم كل من يعيش معها أو يرجوا مصلحة لديها، هكذا كانت الحكومة وهكذا مازالت في الجزائر إلى اليوم، ولكننا نرجو أن تنجلي هذه البلايا في عهد الحكومة الشعبية إذا صدق في عزمها ...."[65].

وكانت الإستجابة لصوت بن باديس واسعة، واستطاع تعبئة الحركة الشبانية وخصوصا طلبة المدارس الحرة، ومناصري الحركة الإصلاحية، وامتد صدى الحركة الباديسية إلى المناطق الجنوبية التي عودها بن باديس بالزيارات الميدانية، وذلك ما أقلق السلطة الإستعمارية وعلى رأسها الولاية العامة التي أصدرت منشورا إلى رؤساء المقاطعات الجنوبية تذكرهم من خلاله على متابعة طلبة الجمعية والداعين لها وإلقاء القبض عليهم وسجنهم،

وقد رد بن باديس على المنشور الفرنسي بقوله: ماذا في الجنوب أنديجينا جديدة بعد مائة عام وثمان سنوات.[66]

ومع تطور الأحداث، أصبح خطاب بن باديس مشحونا بالثقافة التصادمية بعدما تأكد كغيره من رجال السياسة بتماطل الإدارة الفرنسية في تعاملها مع المطالب الجزائرية، ولذلك وجه بن باديس نداءا إلى الأمة سنة 1937 يحثها من خلاله على التضامن وأنه حان الأوان للوحدة وجمع الشمل واليقظة والحذر وتوسيع دائرة المطالب، ونلمس ذلك في قوله:"أيتها الأمة الكريمة اليوم وقد يئسنا من غيرنا يجب أن نثق في أنفسنا...اليوم وقد تجوهلت قيمتنا يجب أن نعرف نحن قيمتنا... اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا, يجب أن نقول نحن كلمتنا اليوم, وقد أتى ماضي الإستعمار وحاضره، يجب علينا أن تتحد صفوفنا...".[67]

وعشية إندلاع الحرب العالمية الثانية سعت فرنسا إلى تعبئة القوى السياسية في الجزائر إلى جانبها في الحرب ضد المحور، واتصلت برجال الإصلاح ومنهم بن باديس للوقوف إلى جانبها، لكن هذا الأخير رفض ذلك، ويذكر العديد من الطلبة الذين درسوا على بن باديس وفهموا إصلاحه، أنه أصبح عشية الحرب ميالا إلى الثقافة التصادمية وإلى القطيعة مع الإستعمار، والتصدي لكل تيار ساعد على هدم مقومات الشخصية الوطنية وحسب رواية علي المغربي فإن بن باديس صرح أمام طلبته قبل وفاته قائلا: "واللّه لو وجدت

عشـرة من عقلاء الأمة يوافقون على إعلان الثورة لأعلنتها.[68]

ومما سبق ذكره نخلص القول أن الإتجاه الإصلاحي الذي إعتمده ابن باديس قد كون ثقافة وطنية لأنه تبنى أسسها ومكن لها في الوطن بعد أن خدمها بأفكار ونشرها بين الجزائريين على نطاق واسع، كما كرس لها الوسائل المختلفة وركز على فكرة الإحياء والتجديد والتفكير في قضايا المجتمع[69]، كما تعد حركة بن باديس في جملتها حركة شمولية في نظرتها للإصلاح والتجديد، وكانت شاملة للإصلاح الديني والعلمي والسياسي وكان الإسلام عند بن باديس دين يحقق الكمال العقلي والروحي والخلقي.[70]

ويشاء القدر ويتوفى بن باديس في قمة شعبيته في أفريل 1940 ولم يسعفه الحظ لحضور أحداث الثورة التحريرية، ومع ذلك فإن الداعين إليها والمساهمين في تفجيرها ليسوا ببعيدين عن الفكر الباديسي الذي ترك بصماته في سجل التاريخ الجزائري المعاصر بقوله: "أعيش للإسلام والجزائر".

وإذا كان هنا من أشباه الجزائريين ممن لا يزال يتطاول على الفكر الباديسي ونعته بالعقم، فإن شيخ المؤرخين الدكتور سعد الله يرى عكس ذلك إذ يقول: "وإنصافا للتاريخ نقول أنه لولا أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم ووطنهم، وكونوا أنفسهم في الخفاء و اجتمعوا وتجاوبوا وقرروا الثورة لكانت الجزائر بدون جمعية العلماء كريشة في مهب الريح سنة 1954".[71]

وقد يتساءل كل واحد منا اليوم ماذا لو نهض بن باديس من قبره ورأى بعينيه جزائر اليوم وهي تحاول من جديد البحث عن هويتها وعن وجودها وعن مصيرها ، فهل يشركها في ذلك أم ينام من دون رجعة؟

الهوامش

1 - -أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900 -1930، ج II، ط 3, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1983, 116

2- Mahfoud Kaddache, Djilali Sari, L'Algérie dans l'Histoire, La Résistance Politique. Bouleversement socio-économique, Office des Publications Universitaires. Entreprise Nationale du Livre. Alger 1989, P24.

3 - محمد قنانش، الحركة الإستقلالية في الجزائر بين الحربيين 1919 - 1930 (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1982) 35

4 - حمزة بوكوشة، عبد الحميد باديس في ذكراه، مجلة المعرفة، عدد 10، السنة الأولى، أفريل 1964، ص 20.

5 - محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، الجزء الثاني، ط I, المطبعة العربية الجزائر 1971, ص 16

6 - محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة مجمع اللغة العربية، عدد 21، القاهرة 1966

7 - يذكر التميمي القيرواني في رحلته إلى الحجاز أنه إلتقى بالعديد من علماء الجزائر أمثال حمدان الونيسي الإبراهيمي والعقبي وبن باديس وغيرهم من دعاة النهضة العروبية. للمزيد أنظر: حمد الجاسر، رحلة التيميمي التونسي إلى الحج. مجلة العرب، الأعداد 7 و 8، السنة 16، الموافق لـ 1982، ص 561.

8 - بوكوشة، المرجع السابق

9- R.Vadala, Les Maghrébins en Orient, In Bulletin du Comité de l 'Afrique Française,Année1924.P.74

10- J.Désparmet, Un Réformateur Contemporain en Algérie, In, ique -française, Mars 1933.P.149

11- Désparmet, Contribution à l'Histoire Contemporaine de lgérie, la Politique des Oulémas Algériens, 1911- 1937. In A.F. let, 1937.P.354.

- وكذلك، عبد الرحمان بن العقون، الكفاح القومي و السياسي من خلال مذكرات معاصر 1936 -1954، ج II، ط I, م. 1984, ص 149.

12 - محمد بن العابد الجلالي، تقويم الأخلاق، ط I, المطبعة الجزائرية 1927, ص 68.

- وكذلك: أحمد مريوش، " الإستعمار التغريبي في الجزائر ما بين 1830 - 1900"، مقال نشر في جريدة الشعب على حلقتين بتاريخ 12 و13 جوان 1995

13 - أنور الجندي، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا, الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1965, ص 149.

14 - الدكتور محمد فتحي عثمان، "دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في المشرق العربي"، مجلة كلية العلوم الإجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود، عدد 4، الموافق لـ 1980، ص 489.

15 - محمد البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقي، دار الكتب الجزائر 1982, ص 61

16 - محمد فتحي، المرجع السابق، ص 448.

17 - أحمد مريوش، الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير مخطوطة جامعة الجزائر 1993.ص 60

18 - جريدة البصائر، عدد 171، السنة الرابعة، الموافق لـ 22 جوان 1939

19- Archives d'Aix - en- Provence. 16H72

20 - من بين رجالات الإصلاح الذين حاربوا الطرقية نذكر المصلح السلفي مبارك الميلي الذي شن عليهم هجوما من خلال مقالات رسالة الشرك ومظاهره وقد طبعها في كتاب ودعم تأليفه بقصائد أخرى خدمت الإصلاح ومنها قصيدة هامة للطيب العقبي رد من خلالها على إدعاءات أصحاب البدع ووصف فيها حالة الجزائر وقتئذ بقوله :

ماتت السنة في هذه البلاد قبر العلم

وساد الجهل ساد

حكموا عاداتهم في دينهم دون شرع

الله إذ عم الفساد

- للمزيد أنظر: محمد بن مبارك الميلي،

رسالة الشرك ومظاهره، طII, مكتبة النهضة الجزائرية

1966, ص 284

21 - محادثة شخصية مع الشيخ أحمد حماني رحمه الله بتاريخ 1984/01/11 بمقر المجلس الإسلامي الأعلى بالعاصمة

22 - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، طII, الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981, ص 410.

23 - مجلة الشهاب، الجزء 8، المجلد 13، أكتوبر 1939.

24 - عمار طالبي، " النـزعة العقلانية والأخلاقية عند إبن باديس" ، محاضرة ألقيت في الملتقى الأول حول ثقافة السلم في فكر بن باديس 16 -17 -18 أفريل 2000 جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة.

25 - لقد ركز لي على هذه النقطة الهامة الشيخ عمر العرباوي رحمه الله في حديث أجريته معه في مسجد الحراش سنة 1985، وأكد لي أن الحركة الباديسية كونت جيلا جزائريا يفقه في السياسة كما يفقه في أمور الدين.

26 - جمعية التربية والتعليم الإسلامية تأسست سنة 1931 بقسنطينة من أعيان المدنية وتكون مجلسها الإداري من الأشخاص الآتية أسماؤهم: عبد الحميد بن باديس رئيسا, الحاج إدريس كاتب الفرنسية, إسماعيل بن نعمون نائب رئيس, عمر السعيد بن جيكو عضوا, حسين بن الشريف أمين المال, محمد بن زرتي عضوا, حسوته بن الحاج مصطفى نائب, عبد الله اليماوي عضوا, محمد النجار كاتب العربية, حسين ماضوي عضوا.

26 - ومن أهدافها مثلما جاء في المادة الثالثة من قانونها الأساسي: تأسيس مكتب للتعليم، تأسيس ملجأ للأيتام، تأسيس ناد للمحاضرات، تأسيس معمل للبضائع، إرسال البعثات العلمية إلى الخارج للمزيد أنظر: - وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج 4، طI, دار البعث قسنطينة 1985, ص

27 - تعد جريدة السنة النبوية أول جريدة تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتكون اللسان الرسمي الناطق عنها تأسست في مارس 1933 وكانت تصدر كل يوم الاثنين وجاء في شعارها آية قرآنية "ولكم في رسول الله أسوة حسنة " وقول الرسول (ص)

"من رغب عن سنتي فليس مني" وتعطلت الجريدة بقرار وزير الداخلية المؤرخ في 22 جوان 1933 واستنكر بن باديس ذلك في برقية إحتجاج إلى وزير الداخلية يقول:"أن جمعية العلماء تعرب لكم عن إستيائها البالغ منتهاه وعن حزنها العميق الذي سببه تعطيل جريدة السنة وتحتج بكل مالها من قوة على قراركم". للمزيد أنظر: جريدة الشريعة، عدد 1، السنة الأولى، 17 جويلية 1933.

28 - جريدة السنة النبوية، عدد 3، السنة الأولى، 24 أفريل 1933.

29 - طالبي، المرجع السابق.

30- A.G. Bouvreuil, Agitation politique et religieuse chez les Musulmans d'Algérie, In : - 30 A.F, Novembre 1936, P580

31 - لقد شهد بداية القرن حركة الشبان الجزائريين التي قدمت جملة من المطالب للإدارة الفرنسية ومثل هذا الجناح النخبة المفرنسة أما النخبة المعربة فقد شهدت هي الأخرى نشاطا تمحور حول قضايا التعليم والثقافة وحتى الحركة الصحفية ومن الرواد الأوائل نذكر عمر بن قدور، وعمر راسم، وعبد القادر المجاوي، والمولود بن الموهوب، والشيخ كحول، والشيخ الحفناوي وغيرهم. - للمزيد أنظر:

Mahfoud Kadache, Histoire du Nationalisme Algérien.T 1, 2 e Ed ENAL, Alger, 1993, P75.

- وكذلك: أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، ط I, المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1988, ص

32 - محمد فتحي, المرجع السابق, ص445.

33 - جريدة البصائر, العدد171, السنة الرابعة, 22 جوان 1939.

34 - لقد أكد محمد قنانش وهو من المناضلين في صفوف مصالي الحاج أن حركة الجمعية لم تترك بصماتها في التاريخ الجزائري المعاصر, بل أخرت من العمل السياسي, وقد أشار إلى ذلك في كتابه المسيرة الوطنية بقوله: " أما الإصلاح في الجزائر فنشأ كنهظة دينية تعليمية بعد الحرب العالمية الأولى, تأثر بالنهظة الشرقية بما فيها من سلبيات وإيجابيات, و اتخذ طابعا جزائريا من تأثير القصبة التي نشأ فيها من عنف و مخاطرة, ولم ير أمامه إلا الزوايا و المرابطين لمحاربتهم, ولم ينظر إلى الاستعمار على أنه العدو الأول و السبب الحقيقي في هذا التسبيب الذي تتخبط فيه,

وإشتغاله بالأمور الهامشية كالسكوت في الجنازة وغيرها.أعطى من غير قصد الفرصة للاستعمار لكسب الوقت".

- للمزيد أنظر: محمد قنانش, المسيرة الوطنية و أحداث 8 ماي 1945, ط 1, منشورات دحلب الجزائر 1991, ص 40.

35 - أسس محمد بوراس الحركة الكشفية الإسلامية سنة 1930 بالجزائر العاصمة، وقد ساهمت هذه الحركة في توعية وتربية الشباب تربية وطنية. وأمد بن باديس وصحبه من رجال الإصلاح الحركة الكشفية بالتوجيهات الإسلامية والنصائح الوطنية. للمزيد أنظر:

Mohamed Derouiche, Le Scoutisme école du Patriotisme, ENAL, OPU, Alger 1985, P22.

- وكذلك: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الكشافة الإسلامية الجزائرية ط I, مطبعة هومة، الجزائر، 1999, ص 32.

36 - الجمعية الخيرية الإسلامية أسسها بعض أعيان العاصمة سنة 1933 أمثال الطيب العقبي، ومحمود بن ونيش وعباس التركي وشريف محمد الزهار، محمد بن شلحة، ومحمد بن الباي وحسب قانون الجمعية الداخلي فإنها تأسست لخدمة الفقراء والمعوزين، وقال فيها محمد العيد آل خليفة أشعار عديدة منها قوله: إذا صاح عقبيها للفيان أجابته عقبانه الكاسرة

- للمزيد أنظر: مريوش أحمد، الطيب العقبي، ص 96، وكذلك:
L'ikdam, N° 55, 28 Décembre 1933

37 - جريدة البصائر، العدد 171، السنة الرابعة، 22 جوان 1939

38 - وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، الجزء الخامس، ط I, دار البعث قسنطينة، 1991, ص441

39 - نفسه

40 - محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ط II, الشركة الوطنية للنشر

والتوزيع، الجزائر 1980، ص67.

41 - لعل الشيء الذي ميز النخبة الجزائرية المفرنسة مع بداية القرن العشرين هو زواجها بالفرنسيات أمثال فرحات عباس والدكتور بن جلول، والدكتور سعدان وغيرهم، وقد نتج عن الزاوج بالفرنسيات بروز جيل نصف عربي والنصف الأخر فرنسي، وقد صور لنا ذلك الأمين العمودي في قصيدة قالها في طفل صديقه سعدان الذي يناديه والده صالحا بينما والدته تدعوه موريس في قوله:

له غلام أطال الله مدته تنازع العرب فيه والفرنسيس

لا تعزلوه إذا ما خان ملته فنصفه صالح والنصف موريس

-للمزيد أنظر: محمد الأخضر عبد القادر السائحي، محمد الأمين العموري الشخصية المتعددة الجوانب، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1988، ص 23.

42 - محمد الصالح رمضان، "جمعية العلماء ودورها العقائدي والإجتماعي والثقافي"، مجلة الثقافة العدد 83، سبتمبر أكتوبر، 1984، ص 357

43 - حسب تقرير أمني فرنسي مؤرخ في 26 أكتوبر 1955 فإن مؤسسات الجمعية بلغت 410 موزعة على العمالات الثلاثة كما يوضحه الجدول التالي

العمالات	الخلية	النادي	الجمعيات التعليمية	المؤسسات التعليمية	المجموع
الجزائر	42	10	04	45	101
وهران	32	02	19	44	97
قسنطينة	47	14	46	81	188
مناطق الجنوب	05	08	/	11	24
المجموع	126	34	69	181	410

44 - فتحي محمد ، المرجع السابق، ص 484.

45 - تأسست شركة آمال للشمال الإفريقي في 3 ديسمبر 1942 وبلغ عدد المساهمين فيها 100 شخص، بلغت قيمة السلم الواحد نصف مليون فرنك فرنسي وكان على رأس الشركة الحاج طيار وعباس التركي ومثلت العمالات الثلاث وحتى الجنوب.

- للمزيد أنظر: أ.ناصف، الإصلاح الإقتصادي في مشروع جمعية العلماء، مجلة العصر، عدد 6، 15 أفريل 1997، ص 20.

46 - محمد الصالح رمضان، جمعية العلماء، ص 368.

47 – طالبي، المرجع السابق، ص 9.

48- Farhat Abbas, La France c'est moi, L'entente, 23 Fevrier, 1936.

49 - مجلة الشهاب، ج I، المجلد 12، أفريل 1936.

50 - محمد الصالح الصديق، الإمام الشيخ بن باديس , مطبعة البعث قسنطينة, ص 41، نقلا عن جريدة المنتقد، العدد1، الموافق لـ 2 جويلية 1925.

- وكذلك

J.Desparmet, Le Nationalisme à l'école indigène en Tunisie et en Algérie, In: A.F, Fevrier 1935, P.104

51 - مجلة الشهاب، ج12 -م 12، الموافق لـ فيفري 1937.

52 - مجلة الشهاب، ج10، م 12، الموافق لـ جانفي 1937.

53 - الميلي، ابن باديس، ص 50.

54 - مجلة الشهاب، الجزء 12، المجلد 6 ، الموافق لـ جانفي 1931.

55- -Désparmet, Le Nationalisme à l'école indigène en Tunisie et en Algerie , P. 105.

56 - جريدة الشهاب، عدد 32، السنة الثانية، 24 جوان 1926.

57 - تأسست بالجزائر العاصمة في 13 أكتوبر 1932 برئاسة الحافظي ونائبه عمر إسماعيل،وضمت مجموعة من رجال الطرقية والزوايا ودخلت في مهاترات مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. - للمزيد انظر Archives de la (wilaya) d'Alger N°1Z50/1891

58 - قرار ميشال أصدره الكاتب العام بالولاية في 16 فيفري 1933 لمكافحة العلماء ومحاربة المجال الدعوي واتهام العلماء بالتعاون مع الشيوعية لتعبئة الشارع ضد فرنسا. - للمزيد أنظر:

-S.Heranté, Les événements du 12 Février et leurs Conséquences. In, A.F. Républicain, N° 261, 2e Année, Samedi 24 Alger :وكذلك -Avril 1934. P.211. Juin 1939.

59 - أحمد مريوش, دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية 1931 -1952 مجلة الرؤية، العدد الثاني، ماي جوان 1996.

60 - صالح عوض، معركة الإسلام و الصليبية في الجزائر. الجزء الأول, مطبعة الزيتونة للإعلام والنشر 1989, ص 236.

61 - محمد الميلي، ابن باديس وبناء الفكر الوطني الجزائري، مجلة المجاهد الثقافي، العدد1، جوان 1967، ص 12.

62 - إحتوى مشروع فيوليت على ثمانية فصول وخمسين مادة وهو خلاصة لرحلة برلمانية زارت الجزائر سنة 1931 برئاسة موريس فيوليت ومما إحتواه المشروع إصلاح التعليم و الزراعة، زيادة التمثيل النيابي للجزائريين، تأسيس وزارة لشؤون إفريقيا، وإلغاء المحاكم الخاصة.

- للمزيد أنظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1930 -1945، الجزء الثالث ط3, م، و للكتاب الجزائر 1986, ص 18.

63 - مجلة الشهاب، الجزء 6، المجلد 12، الموافق لـ سبتمبر 1936.

64 - مجلة الشهاب، الجزء 6، المجلد 12، الموافق لـ سبتمبر 1936.

65 - جريدة الأمة، العدد 93، السنة الثانية، 6 أكتوبر 1936.

66 - جريدة البصائر، العدد 112، السنة الثالثة، 13 ماي 1938.

67 - عوض، معركة الإسلام، ص 244.

68 - حسب رواية علي المغربي رحمه الله فإن بن باديس لم يكن رافضا للثورة بقدر ما كان يحرض لها ويوفر لها الرجال الأكفاء للقيام بها حتى لا تتميع القضية الوطنية وتكون التضحية في سبيل إعلان كلمة الله والوطن والشعب الجزائري، ويكون الإستقلال إستقلالا تاما.

- محادثة شخصية مع علي المغربي بتاريخ 1985/05/26 بمسجد بن باديس بالجزائر العاصمة.

69 - عبد الله ركيبي، " دراسة مقارنة للتيارات الفكرية قبل الثورة وأثناءها" ، مجلة الأصالة العدد، 22، أكتوبر, نوفمبر, ديسمبر 1974، ص 42.

70 - أحمد محمود الجزار، الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، طI, منشأة المعارف مصر 1999, ص 76.

71 - أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الرابع، ط I, دار الغرب الإسلامية بيروت 1996, ص 147.